خطبة صلاة الجمعة 24/ 2/ 2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بين الطمأنينة والإيمان)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: 28].

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر: 27 – 30].

عنوان خطبة اليوم: **بين الطمأنينة والإيمان**

الطُّمَأْنِينَةُ: السُّكونُ بعد الاضطراب، وهي سكون القلب والنفس والجوارح.

فمن اطمأن قلبه سكن وهدأ، ومن اطمأنت نفسه سكنت وسلّمت أمرها لله واتكلت عليه، ومن اطمأنت جوارحه سكنت بعد تعب وارتاحت بعد نصب.

قال الراغب الأصفهاني: الطمأنينة هي السكون بعد الانزعاج.

أيها الإخوة:

خاف الناس وارتاعوا، بعد هذه الأحداث المتلاحقة والأخبار المتعاقبة، وفيها ما فيها من الآلام والكربات والبأساء والضراء والزلزال والهزات، ونحن ناس من الناس، يصيبنا ما يصيبهم ويخيفنا ما يخيفهم.

وليس الخوف بمستنكر من هذا الإنسان الضعيف ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، فنحن نفرح للخبر السار ونهتم للخبر الأليم، ننشط عند المسرات ونخاف عند المفزعات، وقد امتحننا الله بالخوف فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155].

وقد خاف قبلنا الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 70]، وقال عن موسى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: 21]، وقال عن لوط: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: 33]، وقال عن داود: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22].

فإذا كان الأنبياء –وهم من هم– يخافون فما حالنا نحن!

ولكن إلى جانب خوف المؤمن يقف إيمانُه بعون ربه، ويقينُه بلطفه، وثقتُه برحمته، لينتشله من الهلع والجزع.

فهو يخاف ولكن لا يلبث أن يطمئن إلى سعة رحمة الله؛ لأنه مؤمن بذلك، وها هو القرآن يحكي لنا حال الصحابة رضوان الله عليهم عندما خافوا عدوهم يوم بدر ويحكي طمأنة الله تعالى لهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 9 – 11].

فالمؤمن يخاف لكن لا يلبث أن تطمئن نفسه لمعونة الله له؛ لأنه مؤمن بذلك، وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» [أبو داود].

فالمؤمن يخاف ولكن لا يلبث أن يطمئن إلى قضاء الله وقدره؛ لأنه مؤمن بذلك.

ففي البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي صلى الله عليه وسلم فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلَّق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله! فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال الأعرابي: أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله. فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس.

أيها الإخوة:

سكون الجوارح والنفس والقلب يعين المرء على التفكر والتفكير، ويساعده في البحث عن الأسباب التي تعينه على الخروج من الضيق والكربات، ولكن الذعر والهلع والجزع يشوش الفكر ويعطل التفكير ويفسد بدل الإصلاح.

فكم من أناس سقطوا من التدافع وتضرروا لما أرادوا الهروب من مخوِّف، ولو سكنوا لنجوا جميعاً، وكم من أناس أصيبوا بقلق أو اكتئاب من جزعهم من توقع حصول مزعج، ولو سكنوا لسلموا، وكم من أناس مرضوا عضوياً أو نفسياً من هلعهم وذعرهم، فالطمأنينة منجاة والجزع مهلكة.

ومن هنا عزز الإيمان الطمأنينة عند معتنقيه، وعلمهم ما يزيدها ويدعمها، فأول ما يبث الطمأنينة في القلب الإكثار من ذكر الله تعالى: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، جاء في تفسير القرطبي: (تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئنّ). وقال الآلوسي في تفسيره: (إنَّ سبب الطمأنينة نور يفيضه الله تعالى عن قلب المؤمنين بسبب ذِكْرِه، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة ونحو ذلك).

ورد الحديث عن ذِكْرِ الله تعالى وعن اشتقاقاته في القرآن الكريم في اثنين وستين ومائتي موضع، وورد الأمرُ بذِكرِ الله في القرآن في ثمانٍ وأربعين موضعاً.

وأُقسِم، إن قلبك الَّذي بين جنبيك: لا يطمئنُّ ولا يسكن ولا يهدأ ولا يشفى ولا يرتاح ولا يطرَب ولا يأنس ولا ينشرح ولا يلين ولا ينفسح ولا يسلم ولا يأمن إلَّا بذكر الله.

ولئن كانت المخاوف تحيط بالقلوب فتتعبُها، فإنَّ ذِكرَ الله راحة كلِّ متعَبٍ، ودواء كلِّ عليل، وشفاء كلِّ سقيم، وفي الله عوضٌ عن كلِّ تلف.

إذا مرِضنَا تداوَينَا بذكرِكم ونتركُ الذِّكرَ أحياناً فننتكسُ

قال صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» [البخاري].

وحسبك أن يكون الله معَك إذا كنتَ من الذَّاكرين، وإذا كان الله معك فمَن عليك؟

وثاني ما يثبت الطمأنينة في القلب تلاوة القرآن الكريم وفهمه والعمل بما فيه، فهو الصراطُ المستقيم، وهو الشفاء النافع، عِصْمة لمن تمسّك بهِ، ونجاة لمن اتَّبعه:

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32] ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

وثالث ما يبث الطمأنينة في القلب الصلاة والدعاء: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر أسرع للصلاة أو دعا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبه أَمر، يقول: يا حيُّ يا قيُّوم، برحمتك أستَغيث»، وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلال والإكرام» [الترمذي].

وأخرج أبو داود عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها: قالت: قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أُعَلِّمُكِ كلماتٍ تَقُولينَهُنَّ عند الكَرْب؟: اللهُ، اللهُ رَبِّي لا أُشرك به شيئاً».

وأخرج عن حذيفة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى.

أيها الإخوة:

هذا حديثي لكم بين الطمأنينة والإيمان، واذكروا أنكم موعودون من ربكم بالاستخلاف في الأرض وبتمكين دينكم وبانتشار الأمن بينكم على أن تتحققوا بحقائق الإيمان وتشتغلوا ما حييتم بالعمّل الصالح ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 55، 56].

والحمد لله رب العالمين